البيت الكبير

السماء غضبى على غير عادتها، تنهمر دموعها بغزارة حزنًا وكمداً، رغم قيظ تموز.
الليلة... ليلة زفافها إلى من لا تريده، لكنها إرادة والدها وتعنته
تجلس على فراشها، في الغرفة العلوية للدوار، ثوب زفافها جثةً هامدةً بجوارها، تأبى أن ترتديه، رجت النسوة أن يتركنها بمفردها.... ما إن انطلق آذان الظهر من مئذنة المسجد الكبير، انطلقت في سعادة، تحمل غداءه فوق رأسها، في طريقها عبر أعواد الأذرة العالية إلى البقعة المخصصة للقائهما، تسبقها رنات خلخالها، ممسكةً بطرف جلبابها، تجر ذيله خلفها، فيعانق ذرات التراب، وبعض بقايا القش الدقيق تلاحقها، بينما كان ابن عمها قد شمّر ساعديه وشرع يتوضأ في المجري الصغير.
كانت على يساره تنعم النظر إليه وهو ينهي صلاته
أمسك بيدها وأجلسها أمامه، يأكلان معًا، ترويه بحنانها
ويرويها بحنينه، كانت تراه عملاقًا يفوق النخلة المنتصبة على شفا جرف النهر..طولاً، وكان يراها نهرًا متدفقًا في شراييه... طفرت دمعةٌ من عينيها فمسحتها بكم قميصها، منذ نعومة أظافرهما وهما معًا لا يفترقان، وجدهما يبارك حبهما الذي نشأ ونما وترعرع بين يديه، كان يرى فيهما إمتدادًا لبذرته الخصبة....مات جدها، دمعةً أخري مسحتها بطرف قميصها...احتدم الخلاف بين أبويهما، تمكن عمها من طردهم، واستولى على ميراث الجد دون أبيها.
ظاهر الأرض لم يعد قادرًا على تحمل عظم حزنها، فضمّها

باطن الأرض، ممسكةً بثوب زفافها بين يديها، استقبلها جدها باكيًا، ضمها إلى صدره علّه يخفف من لوعة حزنها ولوعته.

صوت جلبة خارج الدار، أرهفا السمع، تيقنا أنه هو، تعانقا فرحين بقدومه، غافلت جدها للحظة، وعادت...مرتديةً ثوب زفافها.

* * *